THE THEME OF MOTHERHOOD IN THE NOVEL "THE BIG HOUSE" BY MOHAMMED DIB

كريمة بوكرش
دكتوراه في الأدب العربي
أستاذة محاضرة أ
جامعة زيان عاشور بالجلفة الجزائر. كلية الأدب العربي و اللغات و الفنون قسم الأدب العربي
boukerch.karima@yahoo.fr

الملخص أو شرح: شكلت شخصية المرأة دورا رئيسيا و محوريا في الرواية العربية، بكافة انتماءاتها الثقافية و الاجتماعية، فقد وظف الروائي العربي أشكالا متعددة للمرأة، لعل أبرزها شخصية الأم التي طالما كانت محركا للأحداث وصانعا لها.

لكن ما يهمنا في هذه المقال هو تتبع أثر الأمومة في رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب، إذ نلاحظ وجود أربعة أشكال مختلفة للأمومة، و إن تقاطعت في بعض تمثلاتها فإنها تختلف في جوانب عديدة منها، من خلال نموذج الأم المقهورة و العصبية أو نموذج الأم المستضعفة أو الطيبة أو المجروحة.

الكلمات المفتاحية: أمومة- رواية- رمز- شخصية ـ نسق

Abstract: Women's personality has been central to the Arab narrative, with all its cultural and social affiliations. Arab novelists have employed multiple forms of women, perhaps most notably the personality of the mother, who has long been an engine and maker of events.

In this intervention, however, we are interested in tracking the impact of motherhood in Mohammed Depp's Big House novel. We note that there are four different forms of motherhood, and if they intersect in some of their statues, they differ in many respects, through the model of oppressed and neurological mothers or the model of vulnerable, good or injured mothers.

Keywords: Maternity - Novel - Code - Personality- system

*********المقال**********

نسق الأمومة في رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب.

مقدمة:

يقول ابن عربي "إذا أردت أن تحبَّ الأشياء فأنثها"، لأن في الأنثى ما يجعل كل شيء جميل و محبوب، و ربما كان ابن عربي في مقولته هذه يشير للأمومة التي يمكن أن نعتبرها أعلى درجة يصلها رقي الأنوثة وتجليها.

و في الرواية العربية شكلت شخصية المرأة دورا رئيسيا و محوريا، بكافة انتماءاتها الثقافية و الاجتماعية، فقد وظف الروائي العربي أشكالا متعددة للمرأة، لعل أبرزها شخصية الأم التي طالما كانت محركا للأحداث وصانعا لها.

الأم بكل ما تحمله من حقل دلالي جميل يشمل الحنان و الأرض و الوطن و السلام و الطمأنينة و الراحة والأمن، و غيرها من المعاني السامية و الراقية التي تتفرد بها المرأة الأم.

لكن ما يهمنا في هذه المقال هو تتبع أثر الأمومة في رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب، إذ نلاحظ وجود أربعة أشكال مختلفة للأمومة، و إن تقاطعت في بعض تمثلاتها فإنها تختلف في جوانب عديدة منها، من خلال أربع نماذج للأمومة هي:

- نموذج الأم المقهورة و العصبية التي تمثلها الأم عيني - نموذج الأم المستضعفة المقعدة و تمثلها الجدة ماما

- نموذج الأم الطيبة و تمثلها لالا زهرة - نموذج الأم المجروحة و تمثلها منون .

DOI: 10.5281/zenodo.18035633

و هنا يمكن أن نطرح إشكالية: كيف تجلت الأمومة في رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب؟

تيمة الأمومة في رواية الدار الكبيرة:

الدار الكبيرة هي الرواية الأولى من ثلاثية محمد ديب (الدار الكبيرة- الحريق- النول) و تحكي عن تجمع سكاني هو دار سبيطار في تلمسان، أثناء حقبة الاستعمار الفرنسي و قبل الثورة الجزائرية، تقيم في دار سبيطار عدة عائلات كلها تعاني من الفقر و العوز و لكن بدرجات، من بين هذه العائلات نجد عائلة الأم عيني و أطفالها الثلاثة عمر و عويشة و مريم و الجدة ماما، هذه العائلة يتيمة الأب و الفقيرة هي بطلة رواية الدار الكبيرة.

أ- الأمومة من خلال شخصية "عيني"/ نموذج الأم المقهورة و العصبية:

تمثل "عيني" الأمومة في شكلها القاسي و الحاني و المتأزم و الصابر، فقد توفي زوجها و هي في عز شبابها تاركا لها ثلاثة أطفال بلا عائل، و كان على عيني رغم حالة البلد الغارق في الاستعمار و الفقر و العوز، أن تعيل أطفالها و تطعمهم، هذا الوضع جعل من عيني أماً دائمة الغضب، قاسية على أولادها، تصرخ في وجوهم و تتمنى لهم الموت و تدعو عليهم بكل الأدعية الموجعة "شيطان يأخذك" "كوليرا تأخذك" "عفريت" و هو كلام و أدعية لا يمكن أن تصدر عن أم.

يصفها محمد ديب بأنها "عيني عارية الساقين حتى الركبة، ترتدي قميصا رقيقا مشمورا فوق سروال من الخام، و قد شدت كتفيها بمنديل خلق ممزق"(1) و في هذا دلالة على حالة الفقر المرير الذي تعيشه هذه المرأة.

الأمومة في رواية الدار الكبيرة و من خلال شخصية عيني تأخذ بعدا آخر مختلفا عن المألوف في صورة الأم في أعمال سردية أخرى، فهي الأم التي نجدها في بداية الرواية و كأن أولادها أعداء لها من خلال معاملتها السيئة لهم، تقول عيني مخاطبة طفلها عمر: "هذا ما تركه لنا أبوك، ذلك الرجل الذي لا يصلح لشيء، ترك لنا البؤس، غيب وجهه في التراب، و سقطت عليّ جميع أنواع الشقاء... الشقاء هو نصيبي طوال حياتي.. هو الآن هادئ في قبره.. لم يفكر يوما في ادخار قرش واحد.. و ها أنتم تتشبثون بي كالعلق الذي يمتص الدم، لقد كنت غبية.. كان ينبغي أن أترككم في الشارع، و أن أهرب إلى جبل خال مقفر" (2) لكن و مع الغوص في الرواية نكتشف سبب قسوة عيني التي وصفها محمد ديب بأنها تشبه السماء المتلبدة بالغيوم و بعينين تتصفان بنظرتهما الحادة.

إن عيني "تلعب دور الأب كسند مادي و دور الأم كطاقة معنوية و عاطفية للأسرة يضاف إلى ذلك ظروف الحياة القاسية في دار السبيطار"(3) إذن فهذه الظروف جعلت من عيني تعيش المعاناة بكل دقائقها، و تعمل كادحة ليل نهار، و هذا ما جعلها سليطة اللسان مع أطفالها و مع جميع ساكني الدار، فهي لا تتوقف عن السب و الشتم "لا شك أنها حاقدة على احد.. ترى من هو؟ "(4)

و رغم هذه الصورة السلبية للأمومة التي تمثلها شخصية عيني "إلا أنه بالمقابل يمكن تفسيرها بأنموذج المرأة الجزائرية المكافحة من أجل لقمة العيش الممزوجة بعرق الجبين، و التي أنجبت الطفل عمر الذي استطاع محمد ديب أن يؤثثه بقيم الوطنية و الثورة التي استلهمها من الواقع المعيش المرير"(5)

وجه آخر لهذه الأم الأرملة يقدمه محمد ديب، على عكس الوجه القاسي السابق "كان يكفي أن يكون عندها قليل من فحم، عند المساء، حتى تملأ الحلة ماء، و و تدع الماء يغلي على النار، و تطلب إلى أولادها الذين ينتظرون بفارغ صبر، أن يهدأوا قليلا" (6) إن عيني خوفا على مشاعر أطفالها لا تقول لهم أن لا طعام بالبيت، فتستعين بحيلة ماكرة لتهدئة جوعهم، إذ تضع على النار قِدرا به ماء يغلي و يغلي، فيظن الأطفال أن بالقدر طعام، حتى يغلبهم النعاس و ينامون، و هنا نستشعر بجلاء حرقة الأمومة التي لا تستطيع مواجهة عيون أطفالها حين تخبرهم أن لا طعام بالبيت.

و في محاولة من الكاتب لإضفاء صورة الأمومة في وجهها الحقيقي على شخصية عيني، يقدم لنا مدحا لها على لسان الجارة زينة التي قالت لعيني أنها معجبة بها أشد الإعجاب، و أنها تعرف ما تقوم به عيني من عمل مرهق، إنها حقا مفخرة لأسرتها الصغيرة، بل و نجدة لها من السماء، فهي المعيل لهم، و عليهم أن يعتزوا بها، لأنهم يعيشون من عملها.

تقول عيني بعد أن سمعت ثناء جارتها زينة: " نعم، أنا التي أعمل هنا لجميع أفراد الأسرة.. و ها أنت ذي ترينهم بأم العين.. كانت الكبرى لا تزال تبول على نفسها حين تركهم لي أبوهم"(7) قالت هذا و شعرت بالفخر بنفسها وبصنيعها النادر، و التمعت عيونها مع هذا الشعور الحقيقي بالزهو و الخيلاء.

و تواصل عيني: "قلت إنني أعمل من أجلهم، صحيح، و لا شك أنني أتعب و أتحطم، و أكسر رأسي تكسيرا.. و لكن هذا رزقهم" (8) إن عيني الأم جعلتها الظروف القاهرة أما قاسية، لكن داخلها أما قوية و صلبة

لأجل حماية أطفالها الثلاثة، إنها تعمل و تتعب من أجلهم، و تعيش لأجلهم في زمن يصعب فيه إيجاد اللقمة بسبب بطش المستعمر الذي يصر على تجويع الشعب و تجهيله.

إن الطفل عمر بطل الرواية يتذمر من أمه، من صراخها و سبابها الدائمين، و من معاملتها السيئة للجدة ماما أمها، و لكن حين تهجم الشرطة الفرنسية على دار سبيطار ، يشعر بالخوف، و لا يجد إلا الأمومة مصدرا للأمن: "الشرطة.. الشرطة.. ها هم الشرطة.. و قال بينه و بين نفسه: "ماما"، أتوسل إليك، لن أضايقك بعد الآن، احميني، احميني.." (9) و هنا تتحول الأمومة بنظر عمر من مصدر خوف إلى مصدر حماية و أمن: " تمنى في عنف و حرارة أن تكون أمه "عيني" إلى جانبه، لكي تحيطه بما للأم من قوة هائلة، لكي تبني حوله سياجا لا يمكن أن يجتازه أحد.. إن رجال الشرطة يخيفونه أشد الخوف.. إنه يكرههم، هؤلاء الشرطة.. أين أمه؟ أين هي تلك السماء التي تحرسه؟"(10)، إن عيني الأم القاسية المخيفة بنظر ابنها عمر، تتحول في لحظة ما إلى منقذ و سماء حارسة، و هذا هو جوهر الأمومة.

و تنهي رواية الدار الكبيرة حين تقول عيني لعمر "عفريت"(11) فيدرك الصبي ما يختفي وراء هذه الشتيمة من حب و حنان من أمه، فيبتسم، و يأخذ في مراقبتها و هي تقطع الخبز على ركبتها.

ب- الأمومة من خلال شخصية الجدة ماما/ الأم المستضعفة المقعدة:

الجدة ماما هي والدة عيني، التي أفنت عمرها لأجل أولادها، و حين كبروا استقرت عند ابنها الذي كانت ماما تشتغل في بيته كخادمة لزوجته، و تُستغَلُّ لشراء اللوازم من السوق، حتى استنفدوا كل قوتها و طاقتها، تقول عيني: "ما أكثر ما قاست، ما أكثر ما قاست، أما ابنها فهو ابن عاق. لطالما ركضت في سبيله ركض طفلة صغيرة. كانت تقضي أياما كاملة في السوق تشتري لزوجة ابنها ما تأمرها بشرائه. و كانت لا تجد بأسا في ذلك." (12) وحين كبرت و أصبحت لا تقوى على الوقوف أو السير، أرسلها ابنها لابنتها عيني، هذه الأخيرة كانت تسيء معاملتها، تسبها و تشتمها و تصرخ عليها بلا سبب، بل و قامت بوضعها في المطبخ لتعاني الإهمال و الوحدة، وكان الطفل عمر يدرك خوف جدته، إنها "خائفة من عزلتها، من وجودها في المطبخ وحيدة مع دائها. كانت لا تكف عن التوسل و التضرع إلى ساعة متأخرة من الليل." (13)

إن الأم ماما مثلت الأمومة المخذولة التي أعطت أولادها بلا حدود، و لكن لم تجد في الأخير من يساندها في مرضها وعجزها، لتنهش الكلاب في آخر الليل أقدامها المتورمة.

ج- الأمومة من خلال شخصية "منون"/ نموذج الأم المجروحة:

الأمومة المجروحة و المضطهدة تمثلها شخصية منون إحدى ساكني دار سبيطار، فهي مريضة قام زوجها بإرسالها لبيت أمها و تخلى عنها و عن رعايتها و حرمها من أطفالها "كانت منون المريضة، راقدة هنالك، منذ طردها زوجها و أرسلها إلى أمها. إن أمها العجوز هي التي تسهر عليها "(14).

يقول الروائي واصفا منون: "كانت منون تردد و هي تنتحب: لن أراهم مدى الحياة، لن أراهم يا أمي"(15) إن منون بالاضافة للمرض الجسدي زادها ألم فراق أولادها وجعا آخر أثر حتى على قواها العقلية، فهي مشدوهة على الدوام، يلفها الخذلان و الشوق لأطفالها.

منون تمثل بامتياز صورة الأمومة الفاقدة و المحرومة من فلذات أكبادها.

د- الأمومة من خلال شخصية لالا زهرة/ نموذج الأم الطيبة:

لالا زهرة هي والدة منون المريضة، تبرز أمومتها في الرواية حين هجمت الشرطة الفرنسية على دار سبيطار بحثا عن حميد سراج، فيلجأ الطفل عمر لغرفتها خوفا من الشرطة، يقول محمد ديب: "فتذكر الصبي عندئذ أنه قد لجأ إلى غرفة لالا زهرة. إنه لا يعرف لماذا لجأ إلى هنا. و لكنه كان مسرورا. إنها امرأة شهمة، لالا زهرة هذه. إنه يحبها كثيرا "(16)

و حين كانت منون تبكي و تسترسل بالبكاء و تغني شوقها لأطفالها، كانت لالا زهرة أما رؤوفا حنونا، تحاول التخفيف من محنة ابنتها، و توصيها ان تحمد الله على كل شيء.

كانت لالا زهرة تكلم ابنتها كأنها تكلم طفلا بحنان بالغ: "كانت لالا زهرة جالسة حول المريضة جلسة القرفصاء، تقبلها من حين إلى حين متأثرة أشد التأثر، و تغمض لها عينيها بيديها.

-ستُشفيْن يا حبيبتي.. بعد شهر.. و ستعودين إلى صغارك.. إذا هدأت نفسك.. الطبيب قال ذلك"(17) إنها محاولة لإعطاء ابنتها أملا في أن يأت يوم أفضل، تتحسن فيه الظروف و تعود لها عافيتها فترى أطفالها.

الخاتمة:

-لقد برع محمد ديب في تصوير الأمومة في روايته الدار الكبيرة ، و خصوصا في ما تعلق بالأم عيني، التي جمعت شخصيتها صورتين مختلفتين للأمومة:

* الأم القاسية الصلبة سليطة اللسان، و التي لا تكف عن السباب و الدعاء على أولادها و أمها.

* و الأم الأرملة المكافحة لأجل أولادها و الصابرة التي تعمل كي تعيلهم رغم أوضاع البلد السيئة التي صنعها المستعمر الفرنسي، هذه الأم يصفها ابنها بأنها السماء الحارسة له مما يخيفه.

- على صعيد آخر تنوع شكل الأمومة في رواية الدار الكبيرة، فالأمومة المستضعفة المخذولة مثلتها الجدة ماما التي أعطت أبناءها حياتها و صحتها و قوتها، و لم تجْنِ شيئا منهم، و الأمومة المقهورة المجروحة المتمثلة في منون المريضة التي حرمها زوجها من أطفالها فصارت على هاوية الجنون، و الأمومة الدافقة التي عبرت عنها لالا زهرة.

الإحالات:

1- محمد ديب، الدار الكبيرة، ترجمة سامي الدروبي، دار الهلال، القاهرة، دط، 1970، ص 29.
2- نفس المرجع، ص 30.
3- عبد الرحمن بن يطو، تيمة الأم في الرواية العربية دراسة تحليلية مقارنة لتيمة الأمومة في الرواية العربية، ص44
4- الرواية، ص30.
5- الرواية، ص44.
6- الرواية، ص48
7- الرواية، ص51
8- الرواية، ص51
9- الرواية، ص 38
10- الرواية، ص38
11- الرواية، ص146
12- الرواية، ص 125
13- الرواية، ص 109
14- الرواية، ص40
15- الرواية، ص40
16- الرواية، ص40
17- الرواية، ص40